قمع الإبداع النسائيّ

نعمات البحيري

سأحكي الحكاية التي مازلتُ أَقْبض على خيوطها. إنّها حكايةٌ تُراكِمُ في ذاكرتي كمّاً هائلاً من المرارة، خلّفَتْه تلك الصدمةُ التي وضعتْني أمام حقيقة مروِّعة، هي ازدواجيّةُ الواقع الثقافيّ الذي نعيشه. فهذا الواقع يَكيل بمكيالَيْن: إزاء ما تكتبه المرأةُ من جهة، وما يكتبه الرجلُ من جهة ثانية.

إنّها حكايةُ قصة «العصافير التي تؤرِّق صمتَ المدينة» التي نُشِرتْ في مجلة **إبداع** المصريّة في صيف ١٩٩٤، فأثارت عليَّ المجتمعَ الثقافيَّ في مصر والكثيرَ من الزوابع في حياتي الشخصيّة والعمليّة. تتحدّث القصّة عن امرأةٍ في مدينة سكنيّة جديدة، لا يَسكنها سوى عدد قليل من الناس، تعيش وحيدةً في عمارة يَقْطنها جارٌ ملتحٍ وزوجتُه اللذان لا يُلقيان عليها السلامَ، بل ويقوِّض أطفالُهما بذورَ زهورها من أمام باب شقّتها.

ويَحْدث ذاتَ صباح أن ترى من خلف النافذة رجلاً وامرأةً يتبادلان الحب في سيّارة قديمة، فيَرِدُ إلى خاطرها أنّ الاثنين عاشقان لكنّهما بلا بيت، بينما تحيا هي في بيت ولكنْ بلا حبّ أو عشق. وتُدْرك أنّها لم تَعْرف هذا الحبَّ، ولم تر أيّاً من أهلها أو أقاربها يعيشون حبّاً كهذا. وتعود إلى ذكرياتها ونشأتها وما يردِّده جدُّها من عبارات تمجِّد فحولتَه الذكوريّةَ أمام أحفاده، بينما هي واقفةٌ تتابع دجاجةً تَغْرق في ماءٍ يغلي.

كتبتُها. فماذا حدث؟

حين نبتتْ فكرةُ القصة في رأسي كالوهج، قلتُ لنفسي: «اكتُبي، ولْيَحْدثْ ما يَحْدث.» وبالفعل كَتَبتُ وكأنّ العالم من حولي واحةٌ للحريّة والجمال. كَتَبتُ وكأنّني أقود سيّارةً جميلةً لا توقفها إشارةُ مرور حمراء أو صفراء، أو ضابطُ شرطة.

وبعد أن فَرغتُ من كتابة القصة تحدّثْتُ عن خوفي من نشرها إلى الكاتب الجميل صُنْع الله إبراهيم، في وقت كان فيه التيّارُ الأصوليُّ يضع عينَه على الفكر والفنّ في مصر. وكانت أصداءُ حرب ذلك التيّار مع د. نصر حامد أبو زيد، ومع الكثيرِ من المستنيرين، في أَوْجها. نصحني صُنع الله إبراهيم بنشر القصة تحت اسم مستعار. ولكنّي لم أستطع تَقَبُّلَ الفكرة؛ فأنا أتعامل مع اسمي وكأنّه ابني الذي أَسْهر على رعايته وأراه يَكْبر يومًا بعد يوم في ظروفٍ ضاريةٍ يعيشها الكتّابُ والكاتباتُ غيرُ المدعومين بسلطةٍ أو ثراءٍ أو مؤسساتٍ إعلاميّةٍ وثقافيّةٍ. كان نشرُ القصة يلحّ علي، فأَقْدمتُ على تلك المغامرة.

قدَّمتُ القصةَ أولاً لمجلة **القاهرة**، فلم يَنْشرها رئيسُ تحريرها آنذاك غالي شكري. ثم قَدَّمتها لمجلة **إبداع**، فلم يَنْشرها أيضًا الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، الذي كان قد أَطْلق مقولتَه الشهيرةَ بأنّ «الصفوة فقط هم الذين يَنْشرون في **إبداع**، لا الصعاليك» ـ ولم أكن قد اختبرتُ بعدُ إلى أيّ الفئتيْن أنتمي.

ظلت القصة تتنقل بين مجلاتٍ وصحفٍ شتّى، حتى مرّت أحداثُ غزو الكويت، وحرب الخليج، فأعدتُها مرةً أخرى إلى مجلة **إبداع**، ثم نسيتُها ويئستُ تمامًا من نشرها.

ذاتَ يوم وأنا سائرةٌ في ميدان سليمان باشا بوسط القاهرة، فُوجئتُ بالشاعر محمد سليمان يُخْبرني بأنّ لي قصةً فَجَّرَتْ أزمةً في الهيئة العامة للكتاب، وهي هيئة حكوميّة تَصْدر عنها مجلةُ **إبداع**. وعرفتُ بعد ذلك من مجلة **أخبار الأدب** ومن الشاعر أحمد حجازي أنّ عمّال المطبعة رَفَضوا جمعَ القصة وطباعتَها، فاستدعى رئيسَ العمّال وأَمَره بجمعها، لكنّه رَفَضَ متعلِّلاً بأنّ لديه أوامرَ برفض الكتابات التي يتحفَّظ عليها. لكنّ حجازي أصرّ على نشر القصة، وقام بجمعها في مطابع جريدة **الأهرام**، وجاء بها لتُطبع داخل عدد مجلة **إبداع** الذي جُمعتْ موادُّه الأخرى في مطابع الهيئة العامّة للكتاب. وبعدها ناشد حجازي وزيرَ الثقافة فاروق حسني أن يتدخَّل ليَرْفع عمّالُ الطباعة أيديَهم عمّا يُنْشر داخل الهيئة. وكان ذلك أولَ نوعٍ من أنواع الرقابة التي ارتطمتُ بها: رقابة اجتماعيّة ذكوريّة.

أنا «كاتبةُ جنس»؟

نُشِرت القصةُ، ولكنْ بعد حذفِ أجزاءٍ منها، وأَحْدثتْ دويّاً في الواقع الثقافيّ.

في البدء شَنَّتْ إحدى المجلاّت هجومًا شرسًا على القصّة، واختزلتْها في أنّها كتابة جنسيّة بذيئة. ثم انتقلت المعركة إلى صحف الأصوليِّين وصبَّت نارَها على الشاعر ورئيس التحرير أحمد عبد المعطي حجازي ووزير الثقافة فاروق حسني بدعوى أنه من غير اللائق نشرُ مثل هذه الكتابات في مجلات الدولة وصحفها.

وكان عليَّ أن أعاني الكثيرَ من جرّاء نشر قصة واحدة جريئة؛ فقد حُوصرتُ في كلّ مكان أذهب إليه باعتبار أنّني «كاتبةُ جنس،» الأمر الذي وضعني في مواجهات حادّة في مناخٍ فاسد من رأسه حتى قدميه. بل إنّ ما جرى لي قَوَّضَ حياتي العائليَّةَ بين أهلي وأصدقائي، مع التلويح المستمرّ بأنّ ما ذُكِرَ في القصة هو جزء من حياتي الخاصّة. ولم يعذِّبني كلُّ هذا، ليقيني الحادّ بأنّه لا يُمْكن أيَّ مبدعٍ أو مبدعةٍ مهما ارتديا من أقنعة أن يضعا حدّاً فاصلاً بين تجارب حياتهما الخاصّة والإبداع؛ فكلُّ تجاربِ الحياة في تصوري صالحة لأن نصوغ منها فنّاً جميلاً ـ وهذا ما فعله أغلبُ الكتّاب أمثال فلوبير وهنري شاربير، وأغلبُ الكاتباتِ أمثال بيرل بَكْ، وڤيرجيينا وولف، ومارجريت دوراس، وإيزابيلا اللندي، اللواتي قمن بتحويل الكثير من التجارب الشخصيّة والعائليّة إلى أعمال إبداعيّة وفنيّة في إطار تعميم الخاصّ وتخصيص العامّ.

من العامل إلى الرؤساء

وامتدّت الرقابةُ الاجتماعيّةُ الذكوريّةُ من عمّال المطابع إلى الموظَّفين والموظَّفات من زملائي في العمل. فقد قام أحدُ الزملاء بتصوير نسخ من قصتي المنشورة، ووَزَّعَها على مكاتب الموظَّفين الذين كنتُ أتحرَّك بينهم مثل كائنٍ غريبِ الأطوار، لا يتبنَّى نمطَ حياتهم، بل ويَطْمَح إلى أن يصبح كاتبةً ذاتَ شأن في عالم الأدب. وبدأتْ سهامُ الإدانة الاجتماعيّة والأخلاقيّة تَنْطلق نحوي، علاوةً على مختلف المواجهات الحادّة الصغيرة، وما نَتَجَ عنها من تشويه لسمعتي ونشرٍ للمزيد من الشائعات حولي. ولأنّ القصّة المنشورة كانت تتضمن عبارة «رئيسي في العمل ذو الوجه القبيح» فقد تمّ استعداءُ كلّ الرئاسات عليَّ، بدءًا برئيسي المباشر وانتهاءً برئيس الشركة. وكانت النتيجة أن عاقبني كلُّ رئيس منهم بطريقته، وتراوح العقابُ بين الجزاء المباشر، مرورًا بحرماني من استخدام سيّارة العمل، وانتهاءً بوقف ترقيتي ثم نفيي إلى وضع متجمّد في وظيفة صغيرة داخل غرفة زجاجيّة معزولة في إدارة لا تقوم بأيّ عمل. وأدركتُ أنّ الطريق إلى جهنم مفروشٌ بقصص قصيرة جريئة!

في الغرفة الزجاجيّة كنتُ أبدو مرئيّةً للجميع، بمن في ذلك السُّعَاةُ. وكان الجميع يَنْظرون بحذر إلى زميلتهم التي اتّضح أنّها تَكْتب كتاباتٍ مخلّةً بالآداب والأخلاق وتدّعي أنّها أديبة. كان الرائح والقادم يتابعني عبر الزجاج، حتى شعرتُ أنّي صرتُ كالمجذومين، يَنْفر الجميعُ مني، حتى أعزّ صديقاتي. وبدا أنّ كل شيء

أصبح ممنوعًا، بما في ذلك قراءةُ الصحف أو الكتب. وتواكَبَ هذا مع الحملة على الدكتور نصر حامد أبو زيد، وخلافاتِه مع الجامعة المصريّة. وعشتُ مرارةَ التجربة، ورحتُ أقاوم بالكتابة وباختزان التفاصيل الدقيقة، وما إن أعود إلى البيت حتى أُسجِّلَ ما حدث.

كان أشدّ أشكال المرارة في حلقي أنّ ما حَدَثَ استعدى عليَّ السعاةَ والموظفين الذين لا يَفْهمون أنّ ما كتبتُه لا يستدعي استباحتي. وصمدتُ بالتغيُّب عن العمل، وبالإجازات، حتى أنقذتني منحةُ التفرُّغ لثلاث سنوات دخلتُ فيها شرنقةَ العزلة في مدينة سكنيّة جديدة بلا ماء ولا كهرباء.

أنا لستُ نعمات البحيري الكاتبة!

وكنتُ بسبب هذه الرقابة مرغمةً على أن أنفيَ وجودي وعلاقتي بنعمات البحيري الكاتبة! فقد كنت مضطرةً في أُسْرتي ـ مع أمي وإخوتي ـ إلى الحرب من أجل إثبات أنّ هناك نعمات بحيري أخرى تَكْتب القصة، وأنْ ليس لي بها أدنى علاقة، وأنّ المسألة مجرَّدُ تشابه في الأسماء. كنتُ مرغمةً على ذلك لأنّني من أسرة ريفيّة كانت تتابع تمرُّدي بحرص شديد. أمّا أصدقائي فقد رأيتُ بعينيَّ كيف تَنَكَّروا لي بعد نشر القصة. وحمدتُ الله أنّني لم أكن متزوجة، وإلا لكانت المصيبةُ أعظم.

الغريب أنّ أحد النقّاد الذين كنتُ أحترمهم وأظنّه صديقًا زَعَقَ في التليفون وهو يُخْبرني أنّ ما فعلتُه خطأٌ فادح، وأنّ هنري ميللر نفسَه الذي عاش في مجتمع متحرر تَحَسَّب كثيرًا لجرأته في الكتابة. كان زملاءُ الواقع الثقافيّ من كتّاب وكاتبات هم صدمتي الحقيقيّة، سواء بمجافاتهم لي، أو بتخلِّيهم عني. لقد رأيتُ الازدواجيّة الثقافيّة تلتهم العقولَ والأرواح. وبدا الحسُّ القَبَليُّ والذكوريُّ طافحًا في العيون والوجوه. أَعْرف كاتبةً تَصْحب زوجَها إلى الندوات التي يُشتمّ فيها رائحةُ قهر أيّ كاتبةٍ غيرِ مدعومة؛ كانت تَصْحبه لتبرهن له أنها كاتبة أخلاقيّة جداً، فيواصلَ منحَها صكَّ حرية الكتابة!

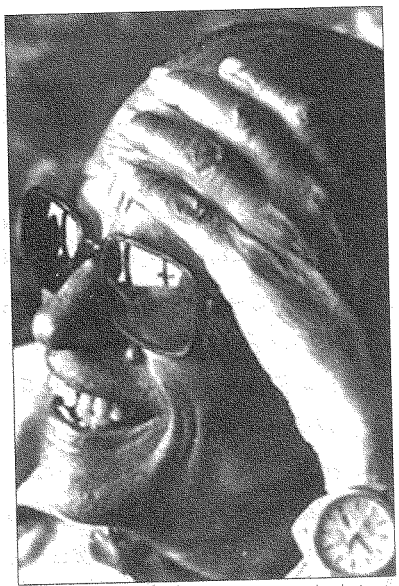
محفوظ "ليست قصص نعمات البحيري هي التي ستُفسد أخلاق الشعب المصريّ"

هكذا تساقطتْ كلُّ الأقنعة ولم يبقَ لي سوى الكتابة وعملٍ إبداعيٍّ جديد. واستفدتُ من خبرات الكاتبات العالميّات في تجاوز أشكال القهر التي سببتها الرقابةُ والضغوطُ الثقافيّةُ والحياتيّة.

وأخيرًا حُسِمت المعركةُ على صفحات الجرائد، لكنَّها لم تنته في عقول الناس. واستمرّ الحصارُ والإدانةُ الأخلاقيّةُ وأشكالُ التحرُّش الجنسيّ، الأمر الذي جعلني أؤمن بأنّ دخول الشرنقة والعزلة حلٌّ سحريٌّ... على الأقلّ في هذه المرحلة.

هؤلاء ساندوني

قليلون هم الذين ساندوني بشكل أو بآخر. الأستاذ الكبير نجيب محفوظ أَرْسل مع الكاتب سعيد الكفراوي رسالةً إلى المسؤول عن صفحة في مجلة هاجمتني، يقول له فيها: «ليست قصصُ نعمات البحيري هي التي ستُفْسد أخلاقَ الشعب المصريّ،» ودعاه إلى وقف الحملة عليّ. أيضًا الدكتور جابر عصفور أشاد بالقصة وسط لفيف من المثقفين المصريين والعرب، وهو ما شجّعني على طلب لقائه في مكتبه، حيث دعاني إلى الصمود لأنّ المثقفين لم يحلّوا بعدُ مشكلاتِهم مع المرأة المبدعة. كذلك ساندتني الدكتورة لطيفة الزيّات التي قاتلتْ لكي أحصلَ على منحة تفرُّغٍ إبداعيّة بعد أن حوصرتُ في عملي.

الغريب أيضًا أنّ المعركة امتدّت إلى وسائل إعلام أجنبيّة بعد أن هدأتْ في مصر، واتخذتْ شكلَ التحقيقات والأخبار. وبدأتْ دُور نشر تبحث في قصصي عمّا رَوَّجتْ له تلك المعركةُ. وحين أخبرتني الدكتورة فريال

غزّول أنّ دار نشر أمريكية فَوَّضَتْ زميلاً للبحث عن أعمالي، قلتُ لها إنَّني لن أسمح لأحد أن يُلْصق بي هذا النوع «الجنسيّ» من الكتابات، وإنني واعيةٌ تمامًا لما يُمْكن أن تجرَّني إليه هذه الأزمة.

وفي أعقاب هذه الأزمة رأيتُ تيّارًا من الكاتبات والكتّاب الشباب يَغْرقون لآذانهم في كتابات جنسيّة، أغلبُها لا تتحدَّث عن شيء حقيقيّ سوى الجنس. ولم تستطع الحركةُ الثقافيّةُ إزاء هذا التيّار أن تَفْعل ما فعلتْه معي، بل تمّ احتواءُ ذلك التيّار بالتأسيس لكتابة جديدة أُطلق عليها فيما بعد مصطلحُ «الكتابة بالجسد.»

تكفيني مغامرة الفنّ

مازال الواقع الثقافي الذكوريّ يكيل بمكيالَيْن، ويَفْرض رقابتَه على المرأة تحديدًا. ومازال ينفي المرأةَ الكاتبةَ ويشوّهها ما لم تكن إعلاميّةً ناجحةً، أو عضوًا بارزًا في حزب، أو على صلةِ قرابةٍ أو زواجٍ من مسؤول ثقافيّ، أو ثريّةً تُنْفق على الثقافة من مالها.

وبغضّ النظر عن كلّ شيء، يكفيني في حياتي وتجربتي هذا السعيُ المغامرُ إلى تحويل الشكل المأساويّ للأزمة إلى فنّ جميل بنكهة طازجة يثير فينا أشواقَ الانطلاق والحيويّة لتجاوز واقع جامد متعصب لا يقبل الاختلافَ أو التسامح.

نعمات البحيري

ناصّة روايّة مصريّة. من أعمالها **ضلع أعوج** (١٩٩٧)، و**أشجار قليلة عند المنحنى** (٢٠٠٢)